

أ- العثمانيون والحجاز

مكانة الحجاز لدى سلاطين آل عثمان ،

كان للحجاز مكانة خاصة لدى السلاطين العثمانيين ، وكانوا ينتهزون الفرصة للتعبير عن محبتهم ، وإحترامهم لامراء مكة ، وذلك لإنتسابهم إلي آل البيت . وقد حافظ العثمانيون منذ بدايات ظهورهم على مسرح التاريخ بعلاقات طيبة مع أمراء الحجاز ، ويكفى للتدليل علي ذلك ما قام به السلطان محمد الفاتح ، من مراسلات مع أمير مكة ، عن طريق العالم الجليل الحاج محمد الزيتوني ؛ حيث أرسل الفاتح يبشرهم بفتح القسطنطينية ، مرفقاً الهدايا القيمة مع رسائل البشارة ، وما كان من أمير مكة إلا أن أمر بقراءة الرسالة المرسلة أمام الكعبة المشرفة ، وأردف ذلك بالدعاء للسلطان الفاتح ، ورد على هداياه بهدايا أخرى مع نجم الدين السيوطي .

لقد قام الفاتح في رسائله بإخبار شريف مكة بالفتح المبين ، وأنه حوّل كبرى كنائس القسطنطينية إلي جوامع ، وأن هداياه ما هي إلا تعبير عن حسن المودة ، وطلب الدعاء . ولم يغفل السلطان الفاتح صاحب السيادة على الحجاز آنذاك ؛ وهو السلطان المملوكي ، فخصه برسالة ، وهدايا قيمة هو الآخر ، وتبادلا رسائل التهئة ، والمودة^(١) . وكانوا يحتضنون الأشراف والسادات^(٢) الذين توطنوا الديار العثمانية ، وسمحوا لهم بإقامة التشكيلات الخاصة بهم ، والتي كان يباشرها نقيب الأشراف^(٣) أولاً بشكل مستقل ، ثم الحقوه بالتشكيلات العلمية . وكان هذا المنصب يتوارثه الأبناء عن الآباء .

(١) إنظر هذه الرسائل المتبادلة بين الفاتح ، والسلطان المملوكي ، وأمير مكة المكرمة في كتابنا «استانبول ؛ عقب التاريخ .. وروعة الحضارة ، القاهرة ج ١ ، ١٤١٩هـ = ١٩٩٩م ص ٣٥ - ٤٨ ، وكذلك ؛ منشآت السلاطين لفرديدون بك ج ١ ، القسطنطينية ١٢٦٤هـ . ص ٢٣٢ - ٢٦٦ ..

(٢) الأشراف والسادات : مصطلح إداري كان يطلق على أبناء وأحفاد سيدنا الحسن حفيد النبي ﷺ ، أما هؤلاء الذين ينتسبون إلي حضرة الحسين فكان يطلق عليهم السادات . وكان لهم نقيب يطلق عليهم نقيب الأشراف ينظم حياتهم ، ويحفظ سجلاتهم . وكانت لهم مخصصات من الدولة ولنقيب الأشراف نواب في كل الولايات يحلون محله في حل أمور الأشراف . وكان منهم أمراء مكة المكرمة في بعض المراحل التاريخية وكان العثمانيون يطلقون على أمير مكة «مكة شريفى» أى شريف مكة . وكان الشريف بركات يتبع إداره مصر عند الفتح العثماني . وما أن علم بدخول - سليم الأول مصر (٩٢٣هـ = ١٥١٧م) حتى أرسل إليه إبنة ومعه مفاتيح مكة والمدينة وبعض من الأمانات المقدسة . وبهذا انتقلت إلي الاداره العثمانية . (المترجم) .

(٣) نقيب الأشراف والسادات : لقب ومنصب عرفته الحضارة الإسلامية ، ويُطلق على المتولي لأمور المنتسبين إلي آل بيت =

وإذا كان السلاطين العثمانيون قد بسطوا رعايتهم على السادات ، والأشراف
وأمنوا لهم الحياة الكريمة في مختلف الولايات ، والمقاطعات العثمانية ، ومنحهم

= رسول الله ﷺ ، من السادات ، والأشراف ، والتثبت من نسبهم ، ويقوم على سجلاتهم ، وتوزيع حصصهم من
الغنائم ، وقد كان بمثابة الوصي علي كل المنتسبين إلى آل البيت ، ويثبت مواليدهم ، ويسقط وفاباهم .
ورثه العثمانيين عن الماليك ، وأصبح من المناصب الرفيعة في الدولة العثمانية ، ومكانه في التشريعات بعد السلطان
مباشرة .

ثم الأخذ بهذا النظام منذ عهد بايزيد (١٣٦٠ - ١٤٠٣ م = ٧٦٢ - ٨٠٦ هـ) ومنذ عهد بايزيد الثاني (١٤٤٧ -
١٥١٢ م = ٨٥١ - ٩١٨ هـ) صار يُعيّن وكيلاً للنقيب ، في الولايات والمقاطعات الأخرى ، ويُطلق عليه « وكييل نقيب
الأشراف » .

وقد كان نقيب الأشراف هو الذي يُقلد السلطان سيف السلطنة ، ويقوم بمراسم تنويجه في الإحتفال الذي كان يُقام
في مسجد أبي أيوب الأنصاري ، وإعلان السلطان الجديد ، وكان هو الذي يقوم بالدعاء للسلطان في المناسبات الدينية ،
وغيرها .

وأول مَنْ عُيّن في هذا المنصب هو العالم البغدادي الشهير ، سيد علي نطاع بن محمد ، وكان تلميذاً للامير البخاري
وتولي إلي جانب النظارة على الأشراف ، الإشراف علي الزاوية الإسحاقية .. واشترط توارثها في ابنائه من بعده .
عقب هزيمة انقره علي يد تيمورلنك ، وتشنت الدولة العثمانية ، ثم حبس سيد علي نطاع فترة ، ثم أطلق سراحه ،
فذهب إلي الحجاز ، ثم عاد إلي بورصة في زمن السلطان مراد الثاني (١٤٢١ - ١٤٥١ = ٨٢٤ - ٨٥٥ هـ) ، واستمر في
وظيفته السابقتين . وعقب وفاته تولى ابنه سيد زين العابدين نقابة الأشراف .

بعد وفاة سيد زين العابدين ، ظلت هذه الوظيفة شاغرة لمدة ما ، إلى أن وصل (إلي العاصمة سنة ٩٠٠ هـ = ١٤٩٤ م)
المولا عبد الله القرعيلي ، والذي كان استاذاً للسلطان بايزيد ، بعد سياحة طويلة في بلاد العرب ، والعجم ؛ فرشح أحد
طلابه ، وهو سيد محمود ، كأول نقيب للأشراف ، وبعده ظل هذا المنصب شاغراً ، فطالب به الكثير من الأعيان . وكان
سيد محمود هذا هو أول من لُقّب بلقب « نقيب أشراف مصر ، وسوريا ، والبلاد العربية » أيضاً .

ومن هذا المنطلق ، ولما بدأت الدولة هي التي تعين نقيب الأشراف ، كان وفقاً للمراسم والتشريفات ؛ يفد النقيب
الجديد إلى الباب العالي لتقديم واجب الشكر ، وبعد مدة من الانتظار ، يصطحبه التشريقاتي إلى مقام الصدر الأعظم ،
الذي يستقبله واقفاً ، ويقدم النقيب بدوره بتقبيل أطراف ثوب الصدر الأعظم ، ويتم الإنعام عليه بفراء السمور ، للوفاء
بمهام وظيفته ...

كان الشعبُ يطلق على السادات ، والأشراف لقب « أمير » وعلى عماتهم « الخضراء ، عمامة الأمير ، .. وكان نقيب
الأشراف ، والسادات ، والأشراف يلبسون هذه العمامة الخضراء الخاصة بهم .

كما كان نقيب الأشراف ، هو الذي يفض في المنازعات ، ويقضى فيما بينهم ، وكانت لهم سجونهم الخاصة بهم ،
يتولاها باشجاويش نقيب الأشراف ، وقبل المحاكمة لابد ، أن يخلع إشارة السادات ، والأشراف وهي العمامة الخضراء ، ولا
يُعدم أي منهم أو يجلد إلا بأمر من النقيب .

ويأتي بعد نقيب الأشراف الد « علمدار » أي حامل العلم ، وصاحبه ، وهو أيضاً من الأشراف الذين مُنحوا هذا اللقب .
وهو المكلف بحمل « الصنجق الشريف » ومرافقة الجيش به عند الخروج إلي الحرب . ولابد أن يُشارك كل السادات ،
والأشراف في موكب خروج وعودة « الصنجق الشريف » من وإلي القصر ، بعد العودة من الحرب . وكانوا يكتفون ، وبهليلون
ويصلون على النبي ، وهم يسيرون خلف العلم النبوي الشريف وحوله .

كان السلطان يستقبل نقيب الأشراف في مراسم المعايدة واقفاً ، وسط تصفيق جاويشية الديوان . « انظر ؛ الدارة ،
العدد الرابع ، السنة الثامنة ، رجب سنة ١٤٠٣ هـ = ابريل ١٩٨٣ م » أو Mekke-i Mükerrerme Emirleri , Ord. prof.

(I. Hakki uzunçarsili, Ank. 1972 - s, 9 - 12.) (المترجم) .

البراءات المؤيدة لذلك . حتى أن السلطان مراد الثاني (١٤٢١ - ١٤٥١ م) كان يُسلم بيديه سنوياً ألف فيلورى ذهباً لآل بيت النبي ﷺ في كل مدينة ، أو قَصَبَة . وقد ظلت هذه عادة متبعة لدى بعض السلاطين ، يراعونها ، ولا يتخلفون عن الوفاء بها .

ولم يغيب سكان مكة والمدينة عن بال السلاطين العثمانيين ، فكان السلطان يلدirim بايزيد (١٣٨٩ - ١٤٠٢ م = ٧٩٢ - ٨٠٥ هـ) وإبنة السلطان محمد چلبى من أوائل من أرسلوا الصرة^(١) إلي أهل الحجاز . وبعد ذلك قام السلطان مراد الثاني - طوال مدة حكمه - بإرسال صرة نقدية تبلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة فيلورى . ذهباً إلي كل من مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، والقدس الشريف ، وخليج الرحمن . وكانت الصرة التي أرسلت في سنة (٨٥٥ هـ = ١٤٥١ م) مقدارها ٨٠١ كيسة ذهبية^(٢) . كما أن نفس السلطان قد أوقف حاصلات قرى منطقة «باليق حصارى» أي قلعة باليق من أعمال آنقره علي مكة المكرمة^(٣) ، وكذلك أوقف في وصيته المؤرخة بآواخر رجب سنة ٨٥٠ هـ = سبتمبر سنة ١٤٤٦ م مبلغاً وقدره ٣٥٠٠ ثلاثة آلاف وخمسمائة فيلورى ذهباً^(٤) ؛ لكل من مكة ، والمدينة ، ولكي يُوزع هذا المبلغ علي فقراء المدينتين ..^(٥) .

ولا تحتوى السجلات المهتمة بالأمر ، علي السنوات التي أعقبت فتح استانبول ؛ ففي نفس سنة الفتح ، وعدا هدايا الفتح ، أرسل السلطان محمد الفاتح الصرة إلي

(١) الصرة : «سنفصل عنها القول في المتن بعد قليل» . وسيكون عنها هامش عند الترجمة (المترجم) .

(٢) الكيسة : مصطلح مالى ، يدل علي الحافظة التي كانت توضع فيها النقود الذهبية ، أو الفضية . وكانت تتغير قيمتها من عصر إلي عصر آخر كان يطلق علي العملة التي توضع في الكيسة إسم الأتجة . وحتى عصر الفاتح كان الفيلورى الذهبى يساوي أربعين أتجة . اول الأمر كان الكيس يساوي ٣٠ ألف أتجة أو ١٠ آلاف دينار ذهب ثم بدأت القيمة تتغير وفقاً للوضع السياسى والاقتصادى للبلاد . (المترجم) .

(٣) عاشق باشا زاده تاريخى ٤ ص ١٩٦ .

(٤) الفيلورى ؛ Filori <---- Flori <---- Florin - عملة أوروبية سادت لغترات كبيرة في الدولة العثمانية وكانت قيمتها ذهبية ، وضربت أول الأمر في فلورنسا في القرن الحادى عشر الميلادى ، ولقيت رواجاً كبيراً في كل دول أوروبا . كانت عبارة عن درهم واحد قيمته أربعون أتجة = «بيضة» ووزنها فيراط . وقد عرفت طريقها إلي الدولة العثمانية منذ عهد محمد الفاتح (١٤٥١ - ١٤٨١ م = ٨٥٥ - ٨٨٦ هـ) . وكان قيمة الدرهم منها ٤٧ قرشاً و ٣٠ پاره ، وقد عرفته البلاد العربية ، وخاصة في موسم الحج . انظر ؛ عثمانلى تاريخى - د . / الصفصافى أحمد ؛ تاصيل مسميات السكة العثمانية المستعملة في الجزيرة العربية إبان العهد العثمانى ، .. المترجم .

(٥) مكة مكرمة أميرلرى . مرجع سبق ذكره ، ص ١٣ هامش ٦ .

سكان الحرمين الشريفين . وتنتقل المصادر مباشرة بعد ذلك إلي ابنه بايزيد الثاني الذي خصص نصف الصرة إلي المدينة المنورة والنصف الآخر إلي مكة المكرمة ، وكانت في مجموعها تبلغ أربع عشرة ألف دوقه ذهبية ^(١) . وكان لابد وأن تصل هذه الصرة إلي مكة المكرمة في العيد الأضحى . ^(٢) .

وضاعف السلطان سليم الأول الصرة التي كان يبعث بها والده ، وعقب دخوله إلي مصر ، واستقرار الأمور بها أرسل إلي كل من آشراف مكة خمسمائة دوقه ذهبية ، وإلي كل شيخ من مشايخها ست سكات ذهبية . وإلي كل واحد من اعيان المدينة ثلاث دوقات ذهبية ، وتم إحصاء الفقراء الذين خرجوا إلي خارج مكة ، ومُنح لكل منهم دوقه . بحيث وصل مجموع المبالغ التي تم توزيعها . مائتي ألف دوقه ذهبية . هذا عدا الظهيرية التي أرسلت مع الصرة . وكان أول أمين للصرة يُعيّن من قبل سليم الأول سنة (٩٢٣هـ = ١٥١٧م) هو الأمير مصلح الدين ، وقد أشرف بنفسه ، ومعه قاضيان مصريان علي توزيع الصرة علي مستحقيها في كل من المدينتين المقدستين ^(٣) .

واعتاد العثمانيون ارسال هذه الصرة سنويا إلي اهالي الحرمين الشريفين ، وقد أطلق عليها الأهالي «الصدقات الرومية» ^(٤) .

(١) الدوقه : Dika = Duka عملة كانت تستخدم في البندقية وفرنسا ، وتسك من الذهب ، والفضة وكانت هي الاكثر رواجاً بين التجار الذين يجوبون الديار العثمانية بالرغم من وجود وتداول العملات التي كان يسكها السلاطين العثمانيين . وكان السلطان اورخان هو اول من سك عملة معدنية عثمانية ، وكُتب علي أحد وجهيها (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وعلى الوجه الآخر (اورخان خلد الله ملكه) . وحرص بعده كل سلطان أن يضرب لنفسه عملة خاصة به .. (المترجم) .

(٢) كانت الصرة التي يرسلها بايزيد الثاني كل سنة لتوزع علي أهالي الحرمين الشريفين قد نالت استحسان شاعر البطحاء العربي الشيخ شهاب الدين ابن أحمد بن علي المتوفى (٩٢٢هـ = ١٥١٦م) فقرض قصيدة في مدح السلطان اسمها (الدر المنظوم في مناقب السلطان بايزيد ملك الروم) وقدمها إلي السلطان عندما قدم الشاعر إلي استانبول ، ماستحسنها السلطان ، وأنعم علي الشاعر بالف دينار ، وكان يرسل إليه سنوياً مائة دينار انظر قرأت مكة ، مجلد ٢ ص ٦٧٠ - ٦٧١) . المترجم .

(٣) وقد جاء في تاج التواريخ ج ٢ ، ص ٣٧١ ، وفي هامر ج ٤ ص ٢٣٦ ، أن السلطان سليم الأول قد خصص لمكة خمسة آلاف أردب ، وإلي المدينة الفين من الظهيرية ، وكانت هذه الكمية تُزاد وفقاً لزيادة نفوس هاتين المدينتين الشريفيتين ، حتى وصلت الكمية الي ١٢ ألف أردب إلي مكة ، وثمانية آلاف أردب إلي المدينة وذلك في منتصف القرن العشرين ، وأنها كانت ترسل من أوقاف مصر . انظر امراء مكة المكرمة ص ١٤ .

(٤) د. د. إسماعيل حقي اوغون جارشيلي ، مكة مكرمة اميرلري ؛ انقره ١٩٧٢م ص ١٤ .

ولما دخلت مصر ، وسوريا تحت النفوذ العثماني ، أخذ العثمانيون على عاتقهم المحافظة علي الأوقاف المملوكية التي كانت وَقْفًا علي الحجاز ، وحافظوا علي إرسال الصرة المصرية بكل عاداتها ، ومراسمها ، وطَبَّقوها كما هي .. وأضافوا عليها بعض التحسينات ؛ فقد زاد السلطان سليمان القانوني (١٤٩٥ - ١٥٦٦ م = ٩٠٠ - ٩٧٤ هـ) مقدار الصرة التي كانت تُبعث من مصر . كما جعل « صدقات الجوالي » أي معظم الجزية التي كانت تُؤخذ من غير المسلمين مخصصة لآهالي الحرمين ^(١) .

وكانت الصرة التي تُرسل من مصر لآهالي الحرمين الشريفين ، والصدقات والغلال ، والظهيرة ، والدشيشة ، تُؤمن من الأوقاف الخيرية الموقوفة علي الحرمين الشريفين في مصر . وكانت القرى المصرية الموقوفة علي الحرمين الشريفين تُسمى في مصر « قرى الدشيشة » ^(٢) .

كما كانت الصرة تخرج في استانبول كل عام وسط احتفال مهيب ، يتقبل فيها أمين الصرة الأوامر من السلطان ، ويتقبل الهدايا ، والعطايا المرسلة من الأمراء ، والأميرات ، والوزراء ، ورجالات الدولة ، والأثرياء ، ويتحرك موكب القافلة ، وسط حراسة مشددة من القوات المخصصة والمرافقة للموكب بمجرد أن يسلم السلطان مقود جمل المحمل إلى أمير القافلة ... وقد فصل الرحالة أولياجلبي في رحلته القول عن هذه المراسم .

* * *

(١) أولياجلبي سياحنتامه ص ١٦١ .

(٢) وصلت الكميات المرسلة من مصر من هذه الظهيرة سنة ٩٧٤ هـ = ١٥٦٦ م ، ٩٧٧ هـ = ١٥٦٩ م ستة آلاف أردب من القمح ، وحسب سجلات دفاتر الديوان المصري بلغت ١٩١٦١ أردباً أي ما يقرب من واحد ونصف مليون كجم . وكانت هذه الكميات تُنقل بالسفن . وكان الأهالي يطلقون على الشورة التي تُسوى في المدينتين الشريفتين من البولفر مسمى « الدشيشة » . انظر ، امراء مكة المكرمة ص ١٥) المترجم .

دخول الحجاز تحت الإدارة العثمانية:

لقد ظلت إمارة مكة المكرمة فى أيدي آبناء بنى هاشم ، والذين يُطلق عليهم بنى فليطه ، وهم من آبناء ، وأولاد الحسن بن على بن أبى طالب (عليه السلام) حتى نهايات القرن السادس الهجرى ٥٩٧ / ٥٩٩ هـ أى الثانى عشر الميلادى ١٢٠٠ / ١٢٠٢ م إلي أن تمكن أمير ينبع أبو عزيز قتاده بن ادريس - وهو بدوره من أولاد الإمام الحسن - من السيطرة عليها ، ولقد بقيت الحجاز تحت سيطرة أولاد ، وأحفاد قتاده إلي أن تمكن الملك عبد العزيز آل سعود من استخلاصها من أيديهم سنة (١٣٤٣ هـ = ١٩٢٤ م) .

لم يكن أمير مكة ، وأشرافها ، يتمتعون بالإستقلال الكامل ، بل كانوا دائماً تحت نفوذ ، وسيطرة الدول التى تتشكل فى مصر ، وكانوا يقرأون الخطبة باسماء حكام هذه الدول .

وخلال إمارة قتاده بن ادريس ، كان الأيوبيون هم أصحاب الكلمة فى مصر ، وسوريا ، واليمن ، ولقد اعترفوا بإدارة الأشراف لمكة والمدينة .. ولما جاء المماليك ، ومن بعدهم العثمانيون اعترفوا بإمارة نفس العائلة على الحجاز ، وكانوا يعثون إليهم بالفرمانات التى تعترف لهم بالإمارة ، وتُصدّق لهم عليها .. إن وجود الحرمين الشريفين ، وما يُمثله بالنسبة للعالم الإسلامى أجمع ، تحت سيطرة هذه الدول ، كان يحمل إلي جانب الأهمية السياسية ، أهمية دينية قصوى .. فقد كان ذلك يمثل نفوذاً ، وإعتباراً معنوياً لا يُستهان به لهذه الدول ، بين شعوب العالم الإسلامى .. ولقد حرص هؤلاء الحكام - وخاصة بعد سليم الأول سنة (١٥١٧ م = ٩٢٣ هـ) على أن يلقبوا بالخليفة ، لكى يجمعوا بين السلطتين ؛ الدينية - والدينية .

وما أن أُشيع أن السلطان سليم الأول قد انتصر فى مرج دابق سنة (٩٢٢ هـ = ١٥١٦ م) ، واستولى على الشام ، وفلسطين ، وأنه قد انتصر على المماليك أيضاً فى الريدانية سنة (٩٢٣ هـ = ١٥١٧ م) ، وضم مصر إلى الدولة العثمانية ، حتى سارع أمير مكة آنذاك الشريف بركات بن محمد الحسنى ، بإرسال نجله الشريف أبو نمي الذى كان لا يزال صبياً ، لم يتجاوز الثانية عشر بعد ، برفقة سفير يحمل الهدايا ومفاتيح مكة ليعرضها على السلطان العثمانى فى مصر ، مقرونة بالتعظيم وخالص الدعاء .

كان مجيئ الشريف أبو نجي بن بركات إلى مصر في اليوم الثالث عشر من شهر جمادى الآخر سنة (٩٢٣هـ = أغسطس ١٥١٧م) ، فأمر السلطان بحسن استقبال الشريف ، واستضافه في المكان المخصص له ^(١) وفي السادس عشر من الشهر المذكور حضر أبو نجي إلي مقر إقامة السلطان لتقديم مفاتيح الكعبة والهدايا التي أحضرها معه ، وأخذ مجلسه هو ومن معه ، واستمع إلى ما يدور في الديوان ، وما أن أنتهت أعمال الديوان ، حتى استقبل السلطان الشريف وسط حفاوة بالغة ، ثم ودَّعه في موكب لكي يذهب الشريف إلى مقر إقامته ، واستقبله السلطان مرة أخرى في الثاني والعشرين من نفس الشهر وألبسه الخلعة فقبل الشريف يده ، وودعه .

ويذكر ابن اياس أنه [في يوم الخميس ، الرابع من شهر رجب خرج إلى السفر ابن السيد الشريف بركات أمير مكة ، فتوجه إلى وطاقه بالريداية فكان له موكب حافل ، وأخلع عليه قفطان تماسيح مذهباً ، وقُدَّامه الرماة بالنفط ، وخرج في صحبته غالب الحجازيين الذين كانوا بالقاهرة ، وقد نادى لهم السلطان بأن الحجازيين الذين بالقاهرة تخرج في صحبته ، وأشيع ان السلطان سليم شاه كتب مراسيم للسيد الشريف بركات أمير مكة بأن يكون عوضاً عن الباش = (الباشا) الذي كان بها .. وجعله هو المتصرف في أمر مكة قاطبة ، واضاف له نظر الحسبة بمكة أيضاً ، وأنصفه غاية الإنصاف ، فتزايدت عظمة الشريف بركات إلي الغاية ، وأكرم ولده غاية الإكرام ..] ^(٢) .

وهكذا ، يتضح أن أبو نجي قد أحسن استقباله ، ووداعه ، وأنه عند عودته إلى

(١) بذكر حيدر جلبي في روزنامته أن «وَصَلَ الشَّريف أبو نجي ابن الشَّريف بركات أمير مكة المكرمة في الثالث عشر من جمادى الآخر سنة (٩٢٣هـ = أغسطس ١٥١٧م) . وأمر الأغوات باستقباله وفي السادس عشر من الشهر المذكور حضر الشَّريف أبو نجي المذكور إلى الديوان ، وقد شرف بطلعته النورانية ، وكان الصدر الأعظم بونس باشا قد أعد مجلساً في المابين وجلس على مقعده مع قضاة عسكر ، ووصل السفير عرَّار الذي هو ابن عمه ، فجلس على الكرسي المواجهه ، وبعده عُقد الديوان على الترتيب - وتشرف الشَّريف بمقابلة الخداوندكار ، فإنسحب عليه القوم ، ومن تبقَى من أعوات البلوكات ذهبوا إلى دوائرهم ، ومدت الولايم اليومية بدون أي تفصير بحيث كان يُقدم يومياً من الخراف ثلاثين ، وفي اليوم الثاني والعشرين ، خلع عليه السلطان ، وقام الشَّريف نجي المذكور وقبل يد الخداوندكار ؛ انظر منشآت زيدون ج ١ ص ٤٣٩ ، ضبع تقويم خان ، سنة ١٢٦٤ ، بينما ابن اياس يُظهر تاريخ المقابلة سابقاً على التاريخ الذي ذكره حيدر جلبي بيوم واحد) . (المترجم) .

(٢) محمد بن أحمد إياس الحنفي ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ج ٥ ، القاهرة ١٣٨هـ = ١٩٦١م ص ١٩٣ .

مكة ، قد تسلم فرماناً ، ببقاء والده في إمارة مكة ، بل واتساع نفوذه ، وإضافة نظر الحسبة إليه أيضاً .

لم يكتف السلطان العثماني بذلك ؛ بل أرسل مائتي ألف ديناراً ذهبياً ، لكي توزع على أهالي الحرمين الشريفين ، وكما سبقت الإشارة - أرسل بالسفن عن طريق البحر كمية كبيرة من الظهيرة ، وكلف الأمير مصلح الدين ، ومعه اثنين من قضاة مصر بتوزيعها ١. (١) وحدد المخصصات التي تُرسل من مصر إلي أمير مكة . (٢) وربط معاشه بخزينة مصر .

وهكذا ، دخلت منطقة الحجاز تحت إشراف ، وإدارة الدولة العثمانية ، وتم بعث القضاة إلي الحرمين ، وتم قراءة الخطبة بإسمهم ، وخاصة بعد أن حصلوا على لقب ، ومنصب الخلافة (٣) وكان يُذكر إسم أمير مكة بعد إسم الخليفة ، والسلطان العثماني . وتم تأمين الأمن ، والهدوء في الحرمين الشريفين عن طريق القوات التي كانت تُرسل سنويا من المعسكرات السبع الخاصة بالإنكشارية في مصر .

* * *

(١) ورد في خلاصة الكلام في بيان امراء البلد الحرام ، ص ٥١ ما يلي : «أول ورود حب الصدقة لاهل مكة سنة (٩٢٣) ، ثم وصلت إلى بندر جده مراكب من السويس فيها سبعة آلاف أردب قمح ، وهو أول حب ورد لاهل مكة ، فكتب جميع اهل مكة إلا السوقة ، والتجار ، ووزع عليهم ذلك الحب ، وكان المتولى نظر ذلك الأمير مصلح وعمر الأمير مصلح مقام السادة الخنفية ولما فرغ ثم توجه إلى المدينة المنورة لإجراء الصدقات ثم إلى مصر ثم إلي الروم . انظر ، امراء مكة المكرمة ، ص ٧٤ هامش (١) . المترجم) .

(٢) أولياجلبي سياحتنامه س ، ج ١ ص ١٧٧ .

(٣) عند دخول سليم الأول الى مصر ٩٢٣هـ = ١٥١٧م كان الخليفة المتوكل على الله هو صاحب الحبل والعقد ، والامر والنهي في الديار المصرية .. ولكن بعد أن استقرت الامور له ، نقل الخليفة ومن في معيته إلى استانبول مع الآلاف من الفنيين ، والحرفيين المصريين وخلال المراسم التي تمت في جامع الأياصوفيا تم التنازل عن لقب الخلافة ، وجبَّتها من قبل آخر الخلفاء العباسيين المتوكل على الله الثالث ؛ وهكذا أصبح سليم العثماني خليفة للمسلمين ، وجمع بذلك بين السلطة السياسية والدينية في البلاد . انظر ؛ ابن اياس ج ٥ حوادث سنة ٩٢٣ هـ . وكذلك ؛ (Osmanli Padisahian Ansiklopedis, C. I. S. 214) (المترجم) .

تعيينات أمراء مكة ومخصصاتهم:

كان بمجرد وفاة أمير مكة ، أو عزله يُصبح مقام الإمارة شاغراً ، وبناءً عليه يتم إختيار الشريف الجديد من بين الأشراف وبتأييد من قاضي مكة ؛ وولاية كل من مصر ، والشام ، وجده^(١) وتقاريرهم ، يصدر السلطان العثماني فرمان التعيين .

وإذا ما ثارت العصبية ، واختلف الأشراف حول الأمير المنتخب ، كانت الحكومة تفاضل بين واحدٍ من المرشحين الذين تم تزكيتهما من قبل قاضي مكة ، والولاية المشار إليهم . وكانت الصراعات حول هذا المنصب تخلق العديد من القلاقل في الحجاز ، وصفحات التاريخ تُسجل العديد من المصادمات بين الأشراف ، وبعضهم البعض ، من ناحية ، أو بينهم وبين الدولة العثمانية من ناحية أخرى .

عقب الإستقرار على الأمير المعين ، كانت تُرسل إليه «برائة التعيين» أو «منشور التعيين» أو فرمان المتضمن لقرار التعيين ، وتحديد مهام الشريف = الأمير الجديد ، واختصاصاته ، ومخصصاته المالية . وخلال القرنين السادس عشر ، والسابع عشر كان فرمان مختصراً ، ولكن بداية من القرن الثامن عشر كان فرمان أو المنشور يُكتب بشكل مفصل ، ومنمق . فوق ورق آبادى مذهب ويحمل طغراء السلطان . ويوضع في كيس من الحرير الأخضر ، ثم يُلف ويوضع داخل صندوق إسطواني من الذهب ، أو الفضة أو أي معدن آخر ، ثم يختم بالشمع ولا يُفتح إلا في الحرم وفي حضور ذوى الإختصاص ؛ من الأشراف ، والقضاة وشيخ الحرم ، وأمير قافلة الحج المصرى ، والشامى ، وقادة الجند ، والى الحجاز .

يخرج المنادون إلي الشوارع ، والطرقات ، والمدن الأخرى تنادي بالشريف الجديد ، وتُطلق المدفعية تسع عشرة طلقة في مكة المكرمة . وبعد قراءة المرسوم في الحرم وسط الحشد الكبير ، تتم بيعة الشريف المختار من طرف بقية الأشراف ، والقضاة ، والعلماء ، وسائر ذوى الإختصاص ، بينما يكون الشريف المختار ، واقف أمام المنبر النبوى ، أو على الدرجة الثالثة من المنبر .^(٢)

(١) كانت مكة وضواحيها في العصور الأولى خاضعة لنفوذ ولاية مصر ، ثم اصح ولاية جده هم أصحاب النفوذ والحكم ، ولما كان ولاية الشام هم أمراء الحج العثماني في نفس الوقت ، كان لكل هؤلاء رأي ، ووجهة نظر في إختيار ، وتعيين الشريف - المترجم .

(٢) أمراء مكة المكرمة ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢ .

كانت تُغير النوبة أمام أبواب قصر الأمير كل يوم عند صلاة العصر ، ويذكر إسمه في الخطبة بعد السلطان ، ودرجته الإدارية تعلقو درجة عن الوزراء^(١) .

كانت مخصصات الشريف ، والتي تحدد سنوياً من طرف السلطان ، ووالي مصر تُرسل إليه كجائزة للركاب الهمايوني ،^(٢) وكذا العطية الهمايونية^(٣) وقد استمرت منذ أن أقرها سليم الأول على هذا المنوال ، ثم أُضيف إلي ذلك نصف واردات جمرك بندر جده .^(٤) كما كانت هناك مخصصات أخرى تأتي إليه من والي مصر مباشرة ، وعند عزل الشريف ؛ كانت تخصص له أيضاً تعيينات من واردات مصر تحت اسم بدل الإعاشة . وعند العزل ، أو النفي لأي سبب ، كانت الدولة تلتزم بتوفير المسكن ، ومعاش مرضى له ولجن في معيته .^(٥)

* * *

(١) خلاصة الأثر في تراجم أعيان القرن الحادى عشر ، محمد أمين بن فضل الله حموى ، ج١ ص ٤٤٨ .

(٢) كانت تصل إلى خمسين ألف قرش .

(٣) كانت تصل إلي خمسة آلاف قرش تُرسل سنوياً .

(٤) خلاصة الكلام ، ص ٥٣ .

(٥) امراء مكة ص ٢٤ .

مهام أمراء مكة وصلحاياتهم في العصر العثماني :

بعد أن دخلت منطقة الحجاز تحت النفوذ العثماني ؛ قبل الحكام العثمانيون بنفس الأصول ، والقواعد التي كان يحكم على منوالها الأشراف في العصر المملوكي ، وأبقوا على نفس صلاحياتهم ، ونفوذهم داخل المناطق التابعة لهم ، واكتفوا فقط بإرسال قوة محافظة ، لحفظ الأمن والهدوء تُرسل من مصر سنوياً ، وتتواجد في كل من مكة المكرمة ، والمدينة المنورة بالتناوب ...

وإذا كان الأشراف قد بذلوا أقصى طاقاتهم ، لوضع هذه القوات المرابطة في مكة ، والمدينة تحت سيطرتهم لما لمسوه فيها من تهديد ، أو تحديد لنفوذهم ، إلا أن القادة العسكريون المرابطون هنالك لم يقبلوا بذلك . وكان كل منهما يحاول التأثير ، أو التقليل من نفوذ الآخر ، بل كان يصل الأمر أحياناً ، أن يسعى كل منهما لعزل الآخر (١) .

وقد كان الأمراء يحتفظون لأنفسهم بقوات خاصة بهم من البدو ، والأعراب المرتبطين بهم . فقد كان الأشراف يحاولون أن يُبدونَ كحكام مستقلين بالحجاز ، ولكن بدون عملة خاصة بهم ، وكان خوفهم من بعضهم البعض ، يفوق خوفهم من قوات الدولة العثمانية . (٢)

لم يضع العثمانيون قانوناً خاصاً بإدارة الحجاز ، بل كانوا يكتبون بما يتضمنه فرمان التعيين من تحديد للإختصاصات ، ومنح للصلاحيات وما كان يتضمنه المنشور ، أو فرمان كان عبارة عن مجموعة من التوصيات ، والنصائح ، والتكليفات المحددة ؛ لما يجب عمله تجاه الحجاج ، وضرورة توزيع الصرة ، والظهيرية بشكل يتسم بالعدل ، والمساواة . والتشديد على الحيلولة دون البدو والأعراب ، ونهب أموال الحجيج ، وقوافل التجار . ولم تشغل السلطة المركزية بالها إلا بتأمين طرق قوافل الحج . والتي كانت تعتبره من أولويات مسؤولياتها . وقد أشرفت الدولة اشرافاً فعلياً

(١) لقد أرسل أمير مكة أبو نومي سفيراً من طرفه هو قطب الدين المكي لكي يشكو من يبىرى قائد قوات المدينة ، إلا أن السلطان سليمان القانوني الذي خشي من إزدهاد نفوذ الأمير ، فرد السفير دون أن يعزل قائد حامية المدينة ، أنظر ؛ كتاب الإعلام باعلام بيت الله الحرام . (المترجم) .

(٢) انظر ، امراء مكة ، سبق ذكره ص ٢٥ .

على الحج ، واعتبرت هذا العمل واجباً يقع علي عاتقها ، باعتبارها الركن الخامس من أركان الإسلام ، وأن عليها تيسير الحج أمام الراغبين فيه ، فأنشأت الآبار ، وأقامت الحصون ، وشجعت على إقامة الخانات ، وأقامت المخافر ، وكانت تُشرف إشرافاً مباشراً على قوافل الحج ، التي تخرج من كافة أنحاء الدولة في مواعيد محددة ؛ وتضع لها قوة تحرسها ، يقودها أحد كبار العسكريين الذي كان يُسمى سردار الحج^(١) وكان على رأس كل قافلة أميراً للحج يتولى قيادة الجيش وكثيراً ما كان أمير الحج يتولى قيادة الجيش وبخاصة قافلة الحج الشامي .^(٢) وتركت للأشرف - في كثير من الأحيان . الأمر لكي يحلوا مشاكلهم فيما بينهم .. وإذا زادت الأمور عن الحد المسموح به كانت تكلف والي مصر ، أو والي الشام للتدخل ، وحسم الأمر .

ولكن .. لم تر الدولة بدأ من الرقابة ، والمتابعة .. فاستحدثت إمارة سنجق جده ، ثم جعلته مرتباً بالحبشة للسيطرة على مداخل البحر الأحمر ، ثم ربطت بين ولاية جده ، والحبش ، ومشيخة الحرم ، للحيلولة دون إنفراد أمراء مكة بالتجار والآهالي .. ولكن هذا بدوره لم يمنع النزاع ، والشقاق الذي كان يطل برأسه من حين لآخر بين قواد جده ، وأمراء مكة^(٣) .

ولما كانت منطقة الحجاز بعيدة عن مركز الدولة ؛ فقد ربطت أموره منذ أواخر القرن السادس عشر بوالى مصر الذى كانت تُخبره بكل ما كانت تصدره بشأن الحجاز ، أو تبعث به إلي الأشراف في مكة .^(٤) وكانت في نفس الوقت تُوصي والي جدة ، أو فيما بعد والي الحجاز^(٥) بضرورة حسن التعايش مع

(١) سردار = سرعسكر ؛ مصطلح عسكري يعنى رئيس الجيش ، قائد الجيش ، وكان يُطلق على قائد الجيش العثماني بعد تخلى السلطان عن قيادته . وتلقب قائد الجيش بهذا اللقب بعد إلغاء الإنكشارية ، وإذا ما عُيِّن الصدر الأعظم كان يُسمى «سردار اكرم» ، وكثيراً ما كان الصدر الأعظم يجمع بين اللقبين إذا ما قاد الجيش بنفسه ، وكان يُطلق عليه آنذاك ؛ «وزير أعظم وسردار اكرم» . انظر ؛ محمد ذكى باقآلين ، عثمانلى تاريخ ديملى وتريملى ، سوزلكى ، استانبول ، ١٩٧١ م . (المترجم)

(٢) الدولة العثمانية والولايات العربية ، د . الصفصافى احمد المرسى ، الدارة ، العدد الرابع ، السنة الثامنة رجب ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م .

(٣) أولياجلبي سياحتنامه س ، مجلد ٥ ص ١٨٦ .

(٤) يحتوى الفرمان المرسل إلى أمير مكة سنة ٩٨٦ هـ = ٥٧٨ م بضرورة اخبار بكوية مصر بما يدور في مكة والمدينة أسوة بما يحدث من إخبار استانبول بنفس الأحداث . «مهمة دفتري ٣٤ ، ص ٣٦٧ .

(٥) ان بندر جده من أهم الموانئ بالنسبة للحجاز عامة ، ومكة خاصة ، تغد إليه السفن التجارية ، وهو الميناء الذى =

الأشراف ، ولم تدخر وسعاً في إقناع الأشراف كذلك بحسن مداراة الولاية والقادة العثمانيين في جده .

وبصرف النظر عن كل هذه النزاعات السياسية ، وتطاحن النفوذ بين الأشراف والولاية ؛ فقد كانت هناك قوة مكونة من حوالي ٥٠٠ إلى ٦٠٠ فرد تعمل جنباً إلى جنب مع سادة الديوان ، والقلم المخصوص ، أو مدراء التحريرات .. وقبيل نهايات القرن التاسع عشر كان هناك أفندي الديوان «ديوان أفنديسى» وكتبه عربي وكتبه تركي ، ومحاسب ، وأمناء مخازن ، وإمام ، وطبيب ، ومديراً لأمور الإمارة ، وحُجَّاب خواص ، وحامل علم = صنجدار ، وأميراً للأسطول الأميري ، ومتعهداً للجمالة ، ومهندراً ، ومهترباشى = رئيساً للفرقة الموسيقية ، وفرقة عزف عسكرية ، ومتعهد شماسي ، وكلهم يكونون في معية ، وخدمة الأمير ، ويعملون في دوائر الإمارة ... كما كان في معيته ضابطين عسكريين ؛ أحدهما برتبة بكباشى ، والآخر بوزباش ، وجاوشين من النظامية (١) .

ويحتوى كتاب منشآت فريدون ضمن الرسائل المتبادلة بين الأشراف والسلطين ، والصدر الأعظم ، والوزراء ، والولاية العديد من الألقاب التي كانت تتغير من عصر إلى عصر .. مع مراعاة التقفية مع اسم الأمير .. وتحرص كل المراسلات على الإشارة إلى إنتسابهم إلى آل البيت النبوي الكريم (٢) وتصفهم ببعض الصفات مثل من لا يخلف الوعد شريف .. أو ذو القوة والأيد شريف ... أو المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى ... إلى جانب الألقاب الأخرى .

- مستقبل الظهيرة التي تأتي من مصر ، وحجاج البحر - كما كانت جده مطعماً للدول الأجنبية التي تحاول الولوج إلى البحر الأحمر ، فلم تر الدولة مفرأ من انشاء قيادة سنجق في جده ، وربطته بإمارة أمراء مصر في بادئ الأمر ، ثم جعلته إمارة عسكرية مستقلة ، ثم ربطت بين جده ، والحبيشة ، وكانت تعين على هذه الولاية والتياً بدرجة وزير ، وفي أواخر القرن السابع عشر ربطتها بـ «ساليانه» سنوية . ثم خصصت جزءاً من حاصلات جمرك جدة كمرتب لهذا الوالي . وكانت الدولة تعين ولاة جده بعد عزلهم أعوات لمكة ، أو در السعادة ، أو شيخاً للحرم في المدينة وذلك لوقوفهم ، ومعرفتهم بأحوال منطقة الحجاز ، وكانت تضع تحت إمرة شيخ الحرم النبوي قوة كاملة السلاح . وكانت الدولة تتكفل بعلوفاتهم . انظر ، واصف ج ١ ، ص ٣٠٦) وبعد سنة ١٢٨٨هـ = ١٨٧١م بعد انفصال الوالي خورشيد باشا ، أُلغيت ولاية جده ، وحولت إلى متصرفية ، ثم أعيدت مرة أخرى ١٢٨٩هـ = ١٨٧٢م وفي سنة ١٢٩٩هـ = ١٨٨٢م أطلق عليها ولاية الحجاز بدلاً من ولاية جده والحبيشة واليمن . انظر ؛ مكة اميرلىرى ص ٢٧ ، حاشية (٢) . المترجم .

(١) مكة مكرومة اميرلىرى ، ص ٣٠ .

(٢) فريدون بك منشآتى ج ١ ص ٤٤٨ ، ج ١ ص ٤ ، ٥ ، و ج ٢ ص ٦ .

أمين الصرة، وموكبها:

اعتادت الدولة العثمانية أن تبعث في شهر رجب من كل سنة وقبيل نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ، الثالث عشر الهجري في شهر شعبان ، من استانبول إلى الحرمين الشريفين مبلغاً من المال ، وكمية من الهدايا تحت مسمى الصرة ، وأطلقت على الموظف المكلف بتوزيعها لقب « أمين الصرة ..

وكانت الصرة تُرسل من مصر إلى المدينتين المقدستين حتى سنة (١١٢٦ هـ = ١٧١٤ م) . ومنذ ذلك التاريخ ، صدرت الأوامر بأن تُرسل من خزينة الحرمين في الأندرون^(١) . وكانت هذه الصرة المرسلة إلى مكة ، والمدينة توزع وفق نظام خاص ، وتُسجل في الدفاتر علي أنها المعلوم أو المعلومية المرسلة باسم الهمايون ..

يتم إلباس أمين الصرة « الخلعة » في مقام ، وحضور الصدر الأعظم ، ثم يُبعث به من الباب العالي برفقة (الملخص » إلى السراي ، فيخلع عليه بخلعة أخرى في حضور آغا دار السعادة وبعدها مباشرة تتم إجراءات إرسال الصرة على النحو التالي :

- خلال السنوات المعتاد إرسال الصرة فيها عن طريق البر ، وكانت تُعد المذكرات والدعوات من طرف آغا دار السعادة إلى الدفتردار ، ورئيس الكتاب ، والنيشانجي = حامل الأختام - من أجل إعداد آلاي الصرة المعتاد خروجها سنوياً من استانبول في الثاني عشر من شهر رجب ، ثم يقوم معتمد الآغا ، ومعتمد الصدارة بالكتابة إلي مَنْ يهمهم الأمر بهذا الصدد ، ومن يجب تواجدهم في هذا الموكب ..

- تُرسل مذكرة إلي قبطان البحرية لتوفير المعدّيات اللازمة في مرفئ سيركه جي لنقل الصرة ، وموكبها إلي اسكدار في اليوم المحدد ...

- يحضر المدعوون إلي السراي في يوم الموكب ، ويجلسون في قاعة كاتب آغا

(١) « الحكم إلى الوزير يوسف باشا ، وإلى الشام ، والرقّة .. وأمير حاج الشام هو أن : إن الصرة المعتاد إرسالها ، إلي أهالي الحرمين المحترمين ، تعبيراً عن العواطف الحليّة الخسراوية ، كان المعتاد في السنوات السابقة إرسالها من جانب مصر واعتباراً من هذه السنة الميمونة لن تُرسل من جانب مصر ، بل ستسلم إلي أمين الصرة صاحب قدوة الأمثال ، والأعيان محمد زيد مجده بالفعل نقداً علي الوجه المعهود من خزينة الحرمين الشريفين الكائنة في آعتابنا السعيدة .. سنة ١١٢٦ (آخر رجب) انظر مهمه دفتري = دفتر المهمة ١٢٢ ص ١٢٦) . المترجم .

دار السعادة التي أُعدت في الديوان ، وفيما بين بوابتي باب الهمايون والبوابة الوسطى، .. وعقب وصول آغا دار السعادة ، تُسلم إليه الرسالة التي قد أُعدت باللغة العربية ، والموجهة إلي أمير مكة المكرمة ، ثم يتم إلباس الخلع ، وتوزيعها علي المدعوين من طرف الآغا .

- خلال هذه المدة يقوم كاتب الآغا ، ومفتش الحرمين بختم دفاتر الصرة الهمايونية التي أُعدت ، ثم يوقعها الدفتردار بتوقيعه المزبل ، ثم يقوم النيشانجي بوضع الطغراء السلطاني على الدفاتر .. وما أن تنتهي هذه الأعمال حتى يعود الدفتردار ، ورئيس الكتاب والنيشانجي ، ويسلمونها إلي آغا دار السعادة الذي يتوجه بها إلي الأندرون . « الداخل » .

- تُمد الموائد إلي المشايخ ، والعلماء ، والائمة المدعوين جنباً إلي جنب مع طاقم الصرة .. وعقب الطعام تحضر هيئة الموكب إلي ميدان « قبة النبي » حيث السرادق والصوان المقام ، وينتظرون جميعاً خروج السلطان .

- وسط تصفيق جاوشية ديوان السلطان ، بطل السلطان من باب الآغوات البيض المسمى « باب السعادة » وهو على صهوة جواده الأبيض ، ثم يترجل ، ويجلسه النيشانجي حيث مكانه المعد لذلك .. وخلال هذه اللحظات ؛ وعلى الرغم من أن مربيه قد وقف ممسكاً برسالة الهمايون ، وآغوات الحرم قد اصطفوا وعلى أكتافهم أكياس الصرة .. إلا أن الضباط حملة البلط ، من ذوي الذوائب ، يخرجون من باب حرم السلطان ، ويصطحبونه حتى مقامه المقام داخل الصوان .. ويقومون أمام السلطان بعد أكياس النقود ، وتسجيلها في الدفاتر التي توضع في الأظرف ، وتختتم بالشمع ، وتوضع داخل العلب الإسطوانية المعدنية . ثم يعود آغوات الحرم .

- في تلك الأثناء .. يستقبل آغا السعادة ، مربي السلطان الذي يكون قد اقترب بالفرمان السلطاني .. فيسلم الفرمان إلي السلحدار الذي يكون قد أخذ مكانه بجوار السلطان . ، فيقدمه بدوره إلي السلطان . وبعد أن يتم توقيعه ، يختم بخاتم السلطان ثم يُسلم إلي آغا دار السعادة ، هو ودفاتر الصرة ، وأكياسها .

- وبينما آغا دار السعادة ، وآغوات الحرم يتجهون بها نحو الخيمة الرئيسية ،

يستقبلهم أمين الصرة .. ويكون في هذه اللحظات قد إرتدى ، هو ورئيس السقاة خلعتيهما . فتُسلم إليه الرسالة السلطانية ، ويتم استعراض أكياس نقود الصرة أمام الخيمة . وخلال هذه اللحظة أيضاً ، يتم إلباس اثنين من المبشرين الخلع الخاصة بهم .

- ثم يُدعى آغا دار السعادة ليرتدى الخلعة الفرائية في حضرة السلطان ، ويكون في نفس هذه اللحظات معتمد الإسطلبي السلطاني يتجول أمام الحضور بالجمل الذي سيحمل المحمل الشريف .. وخلال ذلك يكون المنشدون يرددون المدائح ، والنعوت النبوية ، ويبتهلون بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى .

- يكون السلطان خلال هذه اللحظات قد ألبس آغا دار السعادة القفطان أو الفراء السمورى .. فيتوجه الآغا نحو أمير الاسطبل ، ويتسلم منه مقود الجمل الذى يحمل المحمل .. ويقوم بالطواف أمام الحضور مرتين بالجمل ، ثم يقوم بتسليم المقود الفضى إلى أمين الصرة ، ومقاود مطرزة بالذهب إلي الآغا السقاء ... ثم يتجه ناحية القبلة ، ويسير بضع خطوات تجاه السلطان ، ليقدم فرائض الشكر للسلطان ، ويقبل الأرض بين يديه ...

- عقب ذلك ، يتوجه آغا دار السعادة ، ومعه موظفو الأوقاف ، ويسيرون أمام الجمل الذي يحمل المحمل حتى يكونوا في مقدمة الموكب .. ويخرجون من البوابة الوسطى ، ويتابعون السير مع الموكب ، حتى المستشفى القريب من باب الهمايون وبعد الدعاء بسلامة الوصول ، يعود آغوات ؛ دار السعادة ، وباب السعادة ، ومعتمد السراى ، ورئيس الخزينة الهمايونية إلي الداخل .. ثم يخرجون من باب الهمايون إيذاناً بالإنصراف .

- أما جَمَلُ المحمل ، والقافلة التى تحمل أكياس النقود ، والصرة ، فتكون محاطة بضباط بلطجية = « حاملو بلط » السراى ، .. وما أن يخرج موكب الصرة من السراى حتى يتجه نحو مرفئ سَرَكَجِي ماراً من تحت قصر أو شرفة الإحتفال ، وهناك في المرفئ ، وبعد الإبتهالات ، والدعوات الصالحات ، تنقل المعديات المحمل ، وكتيبة الموكب إلي أُسكدار .^(١)

(١) انظر ؛ تشريفات تجليلك دفتري ، رقم ٦٧٦ مكرر ، وسراى تشكيلاتى ص ١٨١ ، وتشريفات قديمه ، ص ١٨ .

يمكن أمين الصرة مدة في أسكدار ، لإستكمال نواقصه ، ثم يستأذن بالتحرك ، وبعد السماح ، والإذن من السلطان ، تتحرك القافلة . ومن أسكدار حتى الشام ، تلقى القافلة إحتراماً ، ومساعدة ، وعوناً ، وحفاظاً على سلامتها وأمنها من سائر الوزراء ، والأمراء ، والقواد ، وقادة الصناجق ، والقضاة والمعتمدين ، وقادة الإنكشارية ، ورجالات الولايات التي تمر بها ؛ وذلك عقب تلقيهم الأوامر ، والرسائل والأحكام التي تُبعث إليهم بهذا الصدد . وتامرهم بتأمين سلامة الصرة ، وأمينها ، وقافلة الحجاج حتى تصل إلي الشام .

وعقب تحديد اليوم الذي سيتحرك فيه أمين الصرة ، والقافلة من استانبول تُكتب الأوامر إلي متصرف صنجق إزميت الذي يستقبل هو والأهالي الصرة عند بداية حدود المتصرفية . . ويظل هو والخيالة ، والإنكشارية ، وحاملو البنادق في كل الأفضية في حراستها حتى تم تسليمها إلي آقشهير ، وما أن تصل القافلة إلي هناك حتى تتم عملية التسليم ، والتسلم ، وهم مكلفون بأخذ السندات اللازمة .

وما أن يتسلم قائد صنجق آقشهير القافلة ، حتى يتولى هو ورجاله حراستها وتأمينها حتى يُسلمها إلي والي قونية ، ويتسلم مستنداته ، ويعود ، وعلى نفس المنوال تتحرك القافلة في حراسة والي قونية ، أو ملتزمها ، أو مُتسلمها حتى أضنه ، وطوال الطريق ، ينضم إلي القافلة كل الحجاج الذين يتوجهون إلي الحجاز ، لإيفاء فريضة الحج . وهكذا ، تتحرك الصرة ، والقافلة من أضنة إلي حماه ، وتُسلم القافلة التي تسير على هذا المنوال إلي والي الشام في دمشق .

وقبل أن يتحرك أمين الصرة ، وقافلة الحج من الشام بيوم واحد ، يشترك مؤذنو الجامع الأموي ، وكل الجنود والأهالي مع القافلة ، ويتوجهون جميعاً وسط التكبيرات ، والتهليلات المدوية إلي حيث «لواء السعادة» المحفوظ بجوار مقام الصحابي أبي الدرداء ، فينضم حملة اللواء إلي القافلة ، ويتوجهون جميعاً وسط التهليل ، والتحميد ، والتكبير ، والتلبية إلي أن يصلوا إلي قصر الحكم . وفي اليوم التالي يتحرك والي الشام ، وأمير الحاج علي رأس قافلة الحج الشامي متجهين جميعاً إلي مكة المكرمة .

وكان أمير مكة يقوم باستقبال القافلة في مدائن صالح ، أو المدينة المنورة ، أو في أي منزل من منازل الحج ، ويتجهون سوياً إلي مكة .^(١)

إعتباراً من الشام ؛ كانت قافلة الحج سواء في الذهاب أو الإياب تسير وفق نظام ، ونسق معين مع قواتها ، ومدافعها ولا يمكن أن يُسمح بأي خلل من القائمين أو المنضمين إلى القافلة أو من مستقبليها .

يُقدم أمين الصرة الفرمان الذي أحضره - باللغة العربية - وسط مراسم واحتفالات إلي أمير مكة المكرمة ، فيقبل الأمير الفرمان ، ويضعه على رأسه ثم تُقرأ رسالة السلطان علناً في منى .. ثم تُقدم الدفاتر التي تحتوي على مقدار الصرة ، وكيفية توزيعها إلي الشريف .. وبناءً على ما هو مذكور في هذه الدفاتر توزع «المعلومية» على الأهالي تحت نظارة ، وإشراف أمير مكة وشيخ الحرم ، وأمين الصرة ، وقاضي مكة . وتُعاد أنصبة الذين توفاهم الله ، أو الغائبين إلي أمين الصرة ، حيث تُعاد إلي استانبول . أما مستحقات أهل المدينة من الصرة ؛ فتوزع على أهالي المدينة المنورة تحت إشراف وكيل ، أو معتمد الشريف في المدينة ، وقاضيها ، وشيخ الحرم النبوي . وكاتب الصرة ، وتُعلن الحكومة المركزية بالكيفية التي تم بها التوزيع .

يعود أمين الصرة أيضاً مع قافلة الحج ؛ وفد حمل رداً على رسالة السلطان من أمير مكة ، وهدايا قيمة إلي السلطان ، والصدر الأعظم ، والوزراء ، وسائر رجال الدولة . وما أن يصل إلي مشارف أسكدار حتى يُعلن عن مقدمه إلي الصدر الأعظم ، الذي يستصدر له الإذن بالدخول من السلطان فيدخل إلي أسكدار .

يقوم الصدر الأعظم بتقديم رسائل الشريف فوراً ، إلي السلطان ، وتُترجم فوراً في قلم الديوان الهمايوني إلي اللغة التركية ، ويُعرض الأصل العربي ، مع الترجمة ، وتقرير كامل إلي السلطان ...

كان أمراء مكة يرسلون هداياهم إلي السلطان ، والصدر الأعظم مع واحد من

(١) في أواخر العصر العثماني تقرر أن يستقبل أمير المحامل مكة الشريفة في المدينة المنورة ، وكانت تُصرف له مبالغ تصل إلي ثلاثين ألف قرش كمصاريف للطريق واجرة الجمال ، انظر ؛ مرآت مكة ، ج ٢ ص ٢٩٥ .

أخلص رجالهم ، فيصل إلي الباب العالي مع هداياه .. ويتم استقباله في صالون الإستقبال .. ثم يمثل إلى جوار رئيس الكتاب ، ويُسلم معروضاته ، وهداياه وعقب زيارته إلي كتحذا الصدر الأعظم ، والصدر الأعظم ، يُرسل مع « الملخص » إلى السراي .. وعند استقبال الصدر الأعظم لمعتمد الشريف ، ورجاله ؛ كان يُقدم لهم الشربات ، والقهوة ، والبخور ، ويخلع عليه خلعاً من الفراء ، وعلى أربعة أو خمسة من رجاله بالخلع القيمة . ومن الأصول المرعية أن يقوم آغا دارا لسعادة بالباس معتمد أمير مكة المكرمة ، ومنهم في معيته الخلع المختلفة .^(١)

* * *

(١) التشريعات القديمة ص ٢٧ - ٢٨ .